محمد رشيد رضا (*1865 . 1935*)

قال أمير البيان الأمير "شكيب أرسلان" عن الشيخ الإمام "محمد رشيد رضا"، وهو الذي عصره أربعين سنة عن قرب: ((ويطول العهد بعد الأستاذ الأكبر السيد رشيد فسح الله في أجله . حتى يقوم في العالم الإسلامي من يَسُدُّ مَسَدَّهُ في الإحاطة والرجاجة وسعة الفكر وسعة الرواية معًا، والجمع بين المعقول والمنقول، والفتيا الصحيحة الطالعة كفلق الصبح في النوازل العصرية والتطبيق بين الشرع والأوضاع المُحْدَثةِ؛ مما لاشك أن الأستاذ الأكبر فيه نسيجُ وحده، انتهت إليه الرئاسة، لا يدانيه فيه مدان، مع الرسوخ العظيم في اللغة والطبع الريان من العربية، والقلم السَّيَّال بالفوائد في مثل نسق الفوائد، والخبرة بطبائع العمران وأحوال المجتمع الإنساني، ومناهج المدنية وأساليبها، وأنواع الثقافات وضروبها إلى المنطق السديد الذي لم يقارع به خصمًا علا كعبه إلا أفحمه وألزمه، ولا نازل قرنًا كان يستطيل على الأقران إلا رماه بسكاته وألجمه)). وقال عنه العلاقة الشيخ "عبد الحميد بن باديس": ((لقد كان الأستاذ نسيج وحده في هذا العصر فقهًا في الدين وعلما بأسرار التشريع وإحاطة بعلوم الكتاب والسنة ذا منزلة كاملة في معرفة أحوال الزمان وسير العمران الاجتماعي وكفى دليلاً على ذلك ما أصدره من أجزاء التفسير وما أودعه مجلة المنار في مجلداتها التي نيَّفت على الثلاثين وما أصدره من غيرهما مثل (الوحي المحمدي)، الذي كان أحب كتبه إليه، وان مكان يقوم به من عمل في تفسير القرآن لا تستطيع أن تقوم به من بعده إلا لجنة من كبار العلماء)).

أولا: . حيـاته:

هو: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن السيد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني، البغدادي الأصل الحسيني النّسب. يعود أصل الأسرة إلى الحجاز ثم انتقلت إلى العراق فنزلت النجف ثم نزحت إلى الشام وسكنت (القلمون) من أعمال طرابلس الشام. وعن هذا ترجم هو لنفسه قائلا: ((ولدت ونشأت في قرية تسمى القلمون على شاطئ البحر المتوسط من جبل لبنان، تبعد عن مدينة طرابلس الشام زهاء ثلاثة أميال، وكان جميع أهل القرية من السّادة الأشراف المتواتري النسب)).

ولد في *27* جمادي الأولى *1282*هـ الموافق *23* سبتمبر *1865*م، وفي مسقط رأسه قرية (القلمون) نشأ الشيخ "رشيد"، وهي قرية اشتهر أهلها بالشرف وحسن السيرة، وبقلة ظهور المنكر بينهم. وكانت أسرته ذات شرف ومكانة وكرامة، ودين وتقوى وعزة ونفس بين أهل هذه القرية، وكان لها أثر كبير فيها، فقد كان والد الشيخ "رشيد" شيخًا للقلمون وإمامًا لمسجدها، إلي أن توفي *1323*هـ (*1905*م)، والدته اسمها (فاطمة) وتنتسب إلى البيت النبوي من جهة الأب والأم، وكان الشيخ "رشيد" يكثر من الثناء عليها، وقد توفيت بمصر سنة *1350*هـ (*1931*م).

كانت بداية تلقيه العلم في قريته (القلمون)، حيث دخل كُتابها وتعلم مبادئ القراءة والكتابة وقواعد الحساب، وحفظ بعض أجزاء القرآن الكريم. ثم التحق بعد ذلك بالمدرسة (الراشدية) في طرابلس الشام، وهي مدرسة ابتدائية تابعة للدولة العثمانية، وكان التعليم فيها بالتركية، حيث يُدرس فيها مبادئ العلوم الشرعية واللغوية ومبادئ الجغرافيا، لكن لم يستمر بها إلا سنةً واحدة ثم غادرها والتحق في السنة الموالية *1300*هـ (*1883*م) إلى (المدرسة الوطنية الإسلامية) في طرابلس الشام أيضا التي أسّسها الشيخ "حسين الجسر" وكان من المشهورين بالعلم والفضل، الموصوفين بالزهر وأصالة الرأي، وكان مستوى التعليم أرقى في هذه المدرسة أرقى من المدرسة الأولى، إضافة إلى أن التعليم في الفانية كان يتم باللغة العربية، وكذلك يتم تعلم فيها اللغتين التركية والفرنسية، وفيها توسع "رشيد" بدراسة العلوم العربية والشرعية كما درس فيها المنطق والرياضيات والفلسفة. ولكن المدرسة لم تستمر طويلا ذلك أن الحكومة العثمانية لم تقبل أن تعدها من المدارس الدينية التي يعفى طلابها من الخدمة العسكرية، فكان ذلك سبب انصراف الطلاب عنه وإلغائها، فانتقل "رشيد" إلى (المدرسة الدينية) بطرابلس حتى حصل فيها على الإجازة العلمية وهي الشهادة التي كانت تعادل الشهادة العلمية. وهناك واصل تعلمه على يد السيخ "حسين الجسر" في (المدرسة الرحبية) بطرابلس وفي دار الشيخ نفسه الذي أخذ عنه العلوم العربية والشرعية والعقلية إلى أن كتب إجازة بالتدريس سنة *1310*هـ (*1897*م).

تشبع "رشيد رضا" بروحه في ضرورة الجمع بين علوم الدين وعلوم الكون المادية والاجتماعية والعمرانية مع التربية الإسلامية لنهضة الأمة، وأخذ الحديث وفقه الشافعية عن شيخ الشيوخ العلامة "محمود نشافة" وحضر قليلاً من كتاب (نيل الأوطار للشوكاني) على العلامة الشيخ "عبد الغني الرافعي" واستفاد كثيرًا من معاشرته في العلم والأدب والتصوف، وتلقى بعض كتب الحديث على العالم المحدث الشيخ "محمد القوقجي". وشغُفَ بكتاب (الإحياء) لحجة الاسلام "الغزالي" فطالعه كله وأعاد مطالعته فكان له الأثر الصالح في زهده وأخلاقه وإخلاصه في العلم وتقواه في العمل، وكان طريقه منه في فهم الدين أنه دين روحي أخروي فقط وأن ارشاد المسلمين محصور في (تصحيح عقائدهم ونهيهم عن المحرمات، وحثهم على الطاعات وتزهيدهم في الدنيا).

وأثناء مدة طلبه للعلم وهو ويقلب أوراقًا علمية لأبيه وجد عددين من جريدة (العروة الوثقي) التي كان يصدرها الشيخان "جمال الدين الأفغاني" و"محمد عبده" فقرأهما بشوق ولذة بعثاه على البحث عن بقية أعدادها فلما قرأ ما وجد منها المرة بعد المرة أحدثت فيه أثرا جديدًا ونقلته من طور إلى طور وصار طريقه في فهم الإسلام أنه (دين روحاني وجسماني وأخروي دنيوي من مقاصده هداية الإنسان من السيادة في الأرض بالحق ليكون خليفة الله في تقرير المحبة والعدل) وأن ارشاد المسلمين يجب أن يكون . مع تصحيح عقائدهم ونهيهم عن المحرمات وحثهم على الطاعات . إلى المدنية والمحافظة على ملكهم ومبادرة الأمم العزيزة في العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة.

وقد كان قبل ذلك قد حبب إليه كتاب الإحياء مجاهدة نفسه على طريقة الصوفية بترك أطيب الطعام، والاكتفاء بقليله والنوم على الأرض وغير ذلك، وأخذ أوراد الشاذلية عن شيخه "أبي المحاسن القاوقجي" أعبد عباد شيوخ الطريقة في وقته، ورغب منه أن يسلكه الطريقة على الأصول العلمية، إذ لم يعجبه أن يسلك الطريق على وجه صوري من تلاوة الأوراد وحضور الاجتماعات فقال له الشيخ: يا بني انني لست أهلاً لما تطلب فهذا بساط قد طوى وانقرض أهله. بعده تلقى الطريقة النقشبندية وقطع مراتبها كلها فكان تنسكه . أولاً . تصوفا طرقيا شاذليا فنقشبنديا بما فيه من حق وباطل وهدى وضلال. لكن حاله عن اتباع الصوفية قد تغيير بسبب شغفه بكتاب الإحياء الذي دعه إلى اقتناء كتاب (شرح الجليل للإمام المرتضى الحسيني) فلما طالعه ورأى طريقته الأثرية في تخريج أحاديث كتاب الإحياء فتح له باب الاشتغال بعلوم الحديث وكتب السنة وتخلص مما في كتاب الإحياء من الخطأ الضار . وهو قليل . لاسيما عقيدة الجبر والتأويلات الاشعرية والصوفية والغلو في الزهد وبعض العبادات المبتدعة، وترك أوراد الشاذلية لما علم أن قراءتها (من البدع التي جعلت من قبيل الشعائر والشرائع التي شرعها الله تعالى على ما فيه . أي ورد السحر وأمثاله . من الأمور والأقسام المنتقدة شرعًا، وأستبدل بها قراءة القرآن ووردًا آخر في الصلاة على النبي . صلى الله عليه وسلم . ، كما ترك أوراد النقشبندية وذكرها (غير المشروع المخالف لجميع ما ورد في الذكر المأثور) وبين ما في رابطتها من شرك أو بدعة. وذهب إلى التّصوف الحقيقي في الإسلام من تجريد التوحيد وتزكية النفس وتقويم الاعمال وتصحيح النية ومحاسبة النفس ومراقبة الله في جميع الأعمال والزهد في الدنيا والعمل للآخرة والمبالغة في العبادات المشروعة والاعتصام بالورع موزونا ذلك كله ومضبوطًا بالكتاب والسنة وما كان عليه أهل القرون الثلاثة الصحابة والتابعون وأتباع التابعين رصي الله عنهم أجمعين.

وعندما انتهى من طلب العلم تطلعت نفسه إلى العمل الحر، وكان صوت "جمال الدين الأفغاني" والشيخ "محمد عبده" في الدعوة إلى الإصلاح قد ملأ العالم الإسلامي، وقد هيأته للاستجابة له تربية الشيخ "حسين الجسر"، فكان يتتبع وهو طالب أخبارهما كما أسلفنا من قبل ويقرأ مجلة (العروة الوثقى) وغيرها من آثارهما، والتقى بالشيخ "محمد عبده" مرتين في طرابلس في زيارتين قصيرتين، فازداد إعجابه به ورغبة في الاتصال به، فعزم سنة *1314*هـ (*1897*م)، وهي السنة التي توفي فيها "جمال الدين الأفغاني"، فأراد الهجرة إلى مصر للاتصال بوارث علمه وحكمته، وكان قد نال شهادة التدريس . العالية . من شيوخه بطرابلس، وكان والده يعارض في ذلك، فلم يزل به حتى أرضاه، فسافر إلى مصر بطريق البحر من بيروت، ووصل إلى الإسكندرية في *7* رجب *1315*هـ الموافق *3* جانفي *1897*م.

وفي مصر اتصل بالشيخ "محمد عبده" وأخبره بأن غرضه من الهجرة إلى مصر هو تلقى الحكمة عنه، وأنه يعتقد أنه بقية رجاء المسلمين في السعي للإصلاح والاضطلاع به، فقرَّبه الشيخ "محمد عبده" من مجلسه، وكان يجتمع به كثيرًا في داره، فيدور بينهما ما يدور من الكلام في المسائل الإصلاحية التي

هاجر إلى مصر لأجل الاشتغال بها، والوقوف إلى منتهى علمه ورأيه فيها، وكان رأيه يوافق رأيه في أغلب هذه المسائل، ولم يكونا يختلفان إلا في مسائل قليلة، فيدور البحث بينهما فيها حتى ينتهي أمرهما إلا الاتفاق، لأنهما كانا متحدين في طلب الإصلاح.

ومن مصر قام "رشيد رضا" بعدة رحلات إلى أقطار العالم الإسلامي وغيره كانت لها تأثير كبير في حياة "رشيد رضا" وانتفع بها انتفاعا كبيرا حيث اتسع أفقه وكسب الكثير من التجارب والمشاهدات ومعرفة الرجال والأعلام في دنيا العروبة والإسلام، وتمثلت رحلاته هذه في: رحلته إلى سوريا عام *1908*م عقب خلع السلطان عبد الحميد الثاني وإعلان الدستور العثماني، ثم قام عام *1909*م برحلة إلى الآستانة بهدف سعيه إنشاء معهد ديني علمي للتربية الإسلامية الصحيحة وتخرج الدعاة وأيضا إزالة سوء التفاهم بين عنصري الدولة الأكبرين العرب والترك.

ثم قام عام *1912*م برحلة إلى الهند، وفي عام *1916*م إلى الحجاز بعد ثورة شريف مكة "الحسين بن علي"، ثم عاد من جديد وقام عام *1919*م، برحلة إلى سوريا، وفي عام *1921*م قام برحلة إلى أوروبا لحضور مؤتمر جنيف بسويسرا للاحتجاج على احتلال فرنسا لسوريا وإنجلترا لفلسطين، ثم عاد مرة ثانية وزار الحجاز عام *1925*م للمشاركة في المؤتمر مكة المكرمة الذي دعا إلى "عبد العزيز آل سعود" بعد استيلاءه على الحجاز، وعام *1931*م قام برحلة إلى فلسطين بدعوة من "الحاج أمين الحسيني" مفتي فلسطين لحضور المؤتمر الإسلامي المنعقد في القدس لبحث قضية فلسطين وقضايا إسلامية أخرى ولبحث أيضا إنشاء جامعة إسلامية في القدس. فكانت كل هذه الرحلات كما يبدو الغرض منها هو الدعوة إلى تضامن المسلمين واتحادهم ووسائل النهوض بهم ومعالجة الأسباب التي أدت إلى تشتتهم وإضعافهم.

ثانيا . جهوده وأفكاره الإصلاحية:

أ . الإصلاح الديني:

كان لقراءات الشيخ "رشيد رضا" العلمية، ومطالعاته السياسية على سلوكه العام ونظرته للدعوة والإصلاح، فبعد أن كانت رؤيته للإصلاح محصورة في وعظ الناس وإرشادهم؛ أصبح لديه استعداد قوي لمعارضة كل ما يراه معارضًا للدين ومخالفًا للشريعة، غير عابئ بالمكانة الدينية أو السياسية للشخص الذي يعارضه، وترجمة لجرأته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما قام به في بلدته (طرابلس) عندما أنكر على أحد ولاة بيروت إساءته صلاته في مصلى الحكومة بطرابلس، فقبل الوالي كلامه شاكرًا وسط انكار الجمهور ذلك؛ إذ عدوه تهورًا منه وسوء تصرف.

وفي حادث ثانٍ أنكر على رئيس المحكمة العدلية والمدعى العام بطرابلس لبسهما ساعات ذهبية، وفي حادث ثالثٍ أنه خطب وهو شاب بين يدي متصرف طرابلس خطبة تعرض فيها لحال الدولة وحال

الشعب، وما فيهما من خلل وضعف، مرجعاً سبب ذلك إلى جهل العلماء بالسياسة، وجهل الحكام بالدين، مدللاً كل بالأمثلة والشواهد.

أما من جهة عوام الناس فقد كان حريصًا على تعليمهم أمور دينهم في مسجدهم، وفي منتدياتهم العامة، كما كان للنساء نصيب من دروسه في العقائد والعبادات بعبارة سهلة أقرب إلى العامية، كما كان حريصًا على محاربة البدع بكل أشكالها في بلدته القلمون، مجاهرًا بذلك رغم سطوة مشايخ الطرق الصوفية ونفوذهم في ذلك الوقت، من ذلك أنه أمر أحد مريديه بقطع شجرة زيتون كانت النساء تتبرك بها في قريته، وإنكاره أيضا على بعض الطرق الصوفية احتفالاتهم البدعية، وما يسودها من مخالفات شرعية.

وخلاصة القول؛ أن "رشيد رضا" بدأ بتطبيق النهج الإصلاحي انطلاقا من محيط قريته، وما كانت دعوته لتستثني أحدًا، رئيسًا كان أو مرؤوسًا، عينًا كان أو من عامة الناس.

1 . مجلة المنار:

مما ذكرناه من قبل أن بين دوافع هجرته إلى مصر هو إنشاته لمجلة تكون وسيلة للدعوة إلى الإصلاح، وهو الأمر الذي قلنا أنه استشار فيه الامام "محمد عبده"، وفعلا حقق ما عز عليه بعد عام قدومه للمصر إذ أنشأ مجلة سماها (المنار) صدر عددها الأول في *22* شوال *1315*هـ الموافق *17* مارس *1898*م وفي سنتها الثانية وضع لها الحديث الشريف: ((إن للإسلام صُوّى كمنار الطريق))، وقال أن الهدف من انشائها أن ترشد المسلمين((إلى النظر في سوء حالهم وتنذرهم إلى الخط المهدد لهم في استقبالهم وتذكرهم بما فقدوا من سيادة الدنيا وهداية الدين))، وكانت طريقته للوصول إلى هذه الغاية هي الجمع بين مصالح الدنيا وهداية الدين، وهي الطريقة الإصلاحية التي دعانا إليها حكيمًا الإسلام "جمال الدين الأفغاني" و"محمد عبده"، وهي التي يدعو إليها ويناضل عنها)). فقامت (المنار) مقامة مجلة (العروة الوثقى)، وامتازت عليها بأنها مكثت زمنا طويلا، فارتفع بها صوت الإصلاح هذا الزمن الطويل، وهو يمتد إلى وفاة الشيخ "محمد رشيد رضا" سنة *1354*هـ (*1935*م).

كانت مجلة (المنار) هي المؤلف الأساسي للشيخ "رشيد رضا" إذ أنه لم يكتب إلا كتابًا واحدًا أثناء طلبه للعلم وهو (الحكمة الشرعية) أما باقي كتبه التي ألفها، فقد كانت أول أمرها جزءًا من مجلته أفردها في كتاب مستقل لسبب أو لأخر، ولا يخرج من هذه القاعدة شيء من مؤلفاته، بما فيها تفسير المنار الذي كان جزءًا أساسيًا من مجلة (المنار) ثم طبع مفردًا فيما بعد، وهذه المؤلفات التي طبعت ونشرت مستقلة وكانت في مجملها تعبر عن مواضيع المنار الإصلاحية هي: (تاريخ الإمام)، ثلاث أجزاء، (ترجمة القرآن)، (تفسير الفاتحة ومشكلات القرآن)، (خلاصة السيرة المحمدية)، (الخلافة)، (ذكرى المولد النبوي)، (السنة والشيعة أو الوهابية والرافضة)، (شبهات النصارى وحجج المسلمين)، (عقيدة الصلب والفداء)، (الربا والمعاملات في الإسلام)، (مناسك الحج أحكامه وحِكَمه)، (يسر الإسلام وأصول

التشريع العام)، (الوهابيون والحجاز)، (نداء للجنس اللطيف)، (المسلمون والقبط)، (الوحي المحمدي)، (المحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية)، (رسالة في حجة الإسلام الغزالي)، (رسالة التوحيد)، (المقصورة الرشدية)، (تفسير القرن الحكيم)، (الوحدة الإسلامية).

2 . رأيه في التجديد الإسلامي:

لقد سار الشيخ "رشيد رضا" على نهج "جمال الدين الأفغاني" وأستاذه "محمد عبده" في اتجاه التجديد الإسلامي وذلك بالدعوة إلى الأصول الإسلامية الأولى المبرأة من البدع والخرافات، إذ لا نهضة يمكن أن تحقق بمعزل عن الدين، يقول "رشيد رضا" موضحًا أن الدين هو أساس الرقي والمدنية : ((علمنا التاريخ أنه لم تقم مدنية في الأرض من المدنيات التي وعاها وعرفها إلا على أساس الدين حتى مدنيات الأمم الوثنية كقدماء المصريين والكلدانيين، واليونانيين، وعلمنا القرآن أنه ما من أمة إلا وقد خلا فيها نذير من الله عز وجل لهدايتها، فنحن نرى أن هذه تلك الديانات كان لها أصل إلهي، ثم سرت الوثنية إلى أهلها حتى غلبت على أصلها ... وليس للبشر ديانة يحفظ التاريخ أصلها حفظًا تامة إلا الديانة الإسلامية... فاتباع الرسل وهداية الدين أساس كل مدنية، لأن الارتقاء المعنوي هو الذي يبعث على الارتقاء الديني)).

فهذه الدعوة الإسلامية التي تتحقق النهضة الإسلامية في إطارها في مواجهة الدعوة إلى التغريب، ترتبط لدى "رشيد رضا" كما ارتبطت لدى . استاذه من قبل . بالدعوة إلى رفض التقليد والجمود الفكري، الذي عزل النص الديني والتعاليم الإسلامية عن واقع المسلمين، ومشكلاتهم الحاضرة، كما أدى إلى تعطيل عمل العقل في النص الديني واستنباطه الأحكام الفقهية منه، تلك الأحكام التي تدعو إليها ضرورة الواقع وبرفض التقليد ومبرراته والدعوة إلى الاجتهاد، واعمال العقل، واحترام العلم يتحقق التوافق بين النص الديني الثابت والواقع التاريخي المتغير.

وهو إن يدعو إلى العودة إلى الينابيع الإسلامية الأول، التي سببت الانطلاقة الأولى في الإسلام ورفض كل سلطة سوى الكتاب والسنة، فإنه يتجه إلى ضرورة تنقية الواقع الإسلامي من البدع التي علقت به، وعطلت تقدمه، فهو يرفض سلطة أولياء الصوفية وكرامتهم التي تتناقض مع العقل والعلم، موضحًا أضرار الاعتقاد في سلطة كرامات الصوفية، تلك الكرامات التي أثرت تأثيرا سلبيا في الواقع الإسلامي، وجعلت كثيرا من أهل الإسلام يعيشون على هامش الواقع لا داخله، ودخلت الكرامات لدى بعض المسلمين المتأخرين على اعتبار أنها جزء من العقيدة الإسلامية. إن الاعتقاد في الكرامات وإضفاء لون السلطة والقداسة على أدعياء التصوف، وما يقومون بنشره من خرافات وخزعبلات بين العامة، يؤدي في منهج "رشيد رضا" ودعوته إلى تطهير الإسلام من البدع والخرافات وسلطان هؤلاء الأولياء.

ولكي يتحقق الانسجام بين التعاليم الإسلامية النقية وبين الواقع الإسلامي المعيش، الذي انحط بسبب البعد عن الأصول الأولى، لكن هذه العودة مع ضروريتها وجوهريتها ترتبط بأمر أخر عند "رشيد رضا" وهو الدعوة إلى الأخذ بالعلوم الغربية التي أسهمت إسهاما فعالا في تطور الحضارة الغربية، ولكن أَخْذًا رشيدًا على يد عارفين بشريعتنا وطبيعة ثقافتنا الإسلامية.

3 . الوحدة الإسلامية:

كان "رشيد رضا" قبل الانقلاب على السلطان العثماني "عبد الحميد الثاني" يدعو إلى توحيد العقائد والتعاليم الأدبية والأحكام القضائية والمدنية واللغة، بواسطة تأليف جمعية إسلامية تحقق الاصلاح المنشود والوحدة الكبرى المتمثلة في الجامعة الإسلامية التي دعا إليها الإمام "جمال الدين الأفغاني" وسعى لتحقيقها عن طريق تنبيه حكام الحكومات المسلمة المستقلة إلى الاتحاد. وأهم أركان هذا الإصلاح في رأي "رشيد رضا" هو جمع المسلمين تحت حماية الخليفة يكون لها شُعَبٌ في كل قطر اسلامي، وتكون عظمى شُعبها في مكة المكرمة التي يؤمّها المسلمون في جميع أقطار الأرض، ويتآخون في مواقفها ومعاهدها المقدسة، ويكون أهمّ اجتماعات هذه الشعبة في موسم الحج الشريف. وحدد لهذه الجمعية أصول وظائفها وأعمالها ونتائجها بما يلي: أما الأصول فهي توحيد العقائد والتعاليم الأدبية والتهذيبية والأحكام القضائية والمدنية واللغة، وأما الأعمال فأهمها ترك البدع والتعاليم الفاسدة وإصلاح الخطابة والدعوة إلى الدين، وأما نتائجها فاهمها اتحاد الحكومات الإسلامية.

ب . الإصلاح التعليمي:

1 . المدارس:

دعا الشيخ "رشيد رضا" إلى الإصلاح في مجال التربية والتعليم، فحذر الراغبين في اصلاحه من تقليد المدارس الحكومية السائدة آنذاك، التي كانت تهدف إلى اعداد تلاميذها للوظائف، وكان يرى أنه من يرمي بتعليمه إلى هذا الغرض فهو خاسر. كما بين الفنون التي يجب إدخالها في ميدان التربية والتعليم لمسايرة ركب العلم والعرفان، وأصبح المرجع في التأليف بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة، وكانت هذه الفنون التي أدخلها والعلوم التي أوصى بها هي: علم أصول الدين، وتهذيب الأخلاق، وفقه الحلال والحرام، والعبادات، والاجتماع، وتقويم البلدان والتاريخ، والاقتصاد، وتدبير المنزل، والصحة، وعلم لغة البلاد، والخط.

وقد وصل بالشيخ من تشجيعه على العلم والتعليم أن أفتى بأنه إذا وجد في بلد مسجد لإقامة الشعائر، فبناء المدارس والوقوف عليها في ذلك البلد أفضل لا محالة، لأنه من أغراض الشريعة جعل المسجد على قدر الحاجة لما كثرتها من تفريق المسلمين. بل يكتف عند الدعوي النظري في محاولة الإصلاح التعليمي والحث على التعليم والتعلم، بل قام بإنشاء مدرسة في مصر "سماها باسم مدرسة (دار

العلم والإرشاد) والتي أنشئت تحت رعاية جمعية عرفت باسم (جماعة الدعوة والإرشاد)، والتي انتخب لرئاسة الجمعية السيد "محمود بك سالم" وكان الشيخ "رشيد رضا" وكيلا لها، وناظرًا للمدرسة، التي افتتحت الدراسة بها عام *1330*هـ (*1912*م) وكانت تمنح الطالب شهادة مرشد بعد ثلاث سنوات من الدراسة تؤهله للدعوة والإرشاد بين المسلمين، أم إذا واصل ثلاث سنوات أخرى فيصبح داعيًا من الدعاة لغير المسلمين للدخول في الإسلام، وكان لهذه المدرسة للدخول في الإسلام، وكان لهذه المدرسة أثر كبير في إعداد الدعاة، أما من المدرسين فيها، فإلى جانب الشيخ "رشيد رضا" كان هناك: الشيخ "محب الخطيب" والشيخ "أحمد العبد" بن الشيخ "سليمان العبد" من علماء الأزهر وغيرهم.

2 . إصلاح الأزهر:

كانت جهود الشيخ "رشيد رضا" الداعية لإصلاح نظام التعليم في الأزهر متممتًا لما بدأه أستاذه الشيخ "محمد عبده"، فلم يغير من خطته وخطة المنار في السعي نحو إصلاح بل استمر بنفس الحماس الذي كان عليه. فكتب المقال تلو المقال في شؤون إصلاح الأزهر كلها بدعوة علمائه إلى استقلال الفكر والبعد عن التقليد وأنواع البدع والخرافات، والرجوع إلى هداية القرآن والسنة، وفي اصلاح نظام التربية والتعليم والدعوة إلى إدخال جميع العلوم العصرية النافعة وإيجاد التخصصات العميقة في مختلف العلوم، والدعوة إلى أن يكون للأزهر وعلمائه كما دعا إلى قيام الأزهر بواجباته الإسلامية المقدسة وذلك بدفاعه عن الإسلام ورده على شبهات أعدائه. وارسال المرشدين والوعّاظ إلى مجتمعات المسلمين لتعريفهم بأمور دينهم وكذلك قيام الأزهر بالدعوة إلى الإسلام في الشرق والغرب وبذلك يحتل مكانة في تاريخ الدعوة الإسلامية، ولم تكن دعوته سهلة لينة بل لقي "رشيد رضا" الكثير من الأذى ورماه خصمه بالحق والباطل فاضطر أن يشتد في الصمود أمامهم، وكانت دعوته لإصلاح الأزهر دعوة هادئة لينة في مجلدات المنار الأربع.

ج . الإصلاح السياسي:

اضافةً إلى جهوده في الإصلاح الديني والتعليمي، كان للشيخ "رشيد رضا" نشاط بارز، قلما وجد عند شيوخ الدين وأهل العلم، خاصة بعد وفاة أستاذه الشيخ "محمد عبده" الذي كان يكبح جماحه كلما هَمَّ بالانطلاق نحو معترك السياسة، إذ دخل معترك ميدان السياسة جهارًا، ولم يترك قضية من قضايا المسلمين المهمة إلا وتعرض لها، فكشف مخططات الإنجليز، وكتب عن الاستعمار الإيطالي والفرنسي، والحركة الصهيونية، ونبه إلى أهدافها ووسائلها، وخاض في شؤون الدولة العثمانية، فكتب عن السياسية الحميدية، وتكلم عن الكماليين والاتحاديين، الذين انقلبوا عن الخلافة العثمانية وخليفتها عبد الحميد الثاني. فكان يكتب الكثير من المقالات السياسة في مجلته المنار، والتي حاول من خلالها إيضاح المخاطر التي تحيط بالعالم الإسلامي والعربي، ويبين فيها الأحوال السياسية وفي العالم، والتي كانت تدل على حنكته السياسية، فكان يكتب ويحلل الأوضاع السياسية، بحيث لو قرأها إنسان لا يعرفه لقال إنه رجلُ مختص

بالسياسة وتحليلها. فكتب سلسلة مقالات عن ثورة فلسطين وبيان أسبابها ونتائجها وبيان حال اليهود والإنجليز والغرب، كما كانت له كذلك مشاركات واسعة على أرض الواقع من خلال المشاركة في الجمعيات والأحزاب السياسية، والتي من أبرزها:

1 . جمعية الشورى العثمانية: التي تأسست عام *1897*م في القاهرة، وكان "رشيد رضا" رئيس مجلس إدارتها، وكانت أهدافها، وكامت أهدافها تدور حول نقد الحكم الفردي، وإبراز مزايا الحكم الشوري.

2 . حزب الاتحاد السوري: الذي تأسس عام *1918*م في مصر، وكان رئيسه الأمير "ميشيل لطف الله" اللبناني الأصل، وكان الشيخ "رشيد رضا" نائبًا للرئيس، وكان هدف الحزب الكفاح من أجل القضية السورية في الميدان السياسي المحلي والدولي، ضد الاستعمار الفرنسي.

3 . جمعية الشبان المسلمين: التي تأسست عام *1927*م في مصر، وكان الشيخ عضوًا نشيطًا فيها وهي الجمعية التي كانت نواة جماعة الإخوان المسلمين المعروفة التي أسسها الشيخ "حسن البنأ" الذي تعرف عليه من خلال هذه الجمعية، وحصلت بينهما مراسلات عدة تدور حول مسائل علمية والبحث في أحوال المسلمين.

لقد كانت غايته السياسية الكبرى كما يقول الشيخ "عبد الحميد بن باديس" ايجاد دولة إسلامية كبرى مرهوبة الجانب تكون مركزًا للأمم الإسلامية في العلم بصفة دينية اذا لم تكن بصفة سياسية، وعلى هذه الفكرة ولهذه الغاية ناصر الدستور العثماني وجمعية الاتحاد والترقي، فلما تبين له منهم النعرة الملية الضيقة ناوأهم وعمل على ايجاد مملكة عربية اسلامية مستقلة عن الدولة العثمانية التي كان يرى الاتحاديين سائرين بها إلى الانهيار، فانضم إلى الجمعية العربية العاملة في مصر وأوروبا لهذا الغرض. ولهذه الغاية كان مع "الشريف حسين" يوم أعلن الثورة العربية حتى إذا تبين غدر الحلفاء من معاهدة (سايس بيكو) ورأى "الشريف حسين" لا يرجع عن اغتراره بهم نفض يده منه وانقلب عليه وعلى البيت الهاشمي كله.

أما بخصوص "مصطفى كمال أتاتورك" الذي تمكن سنة *1923*م من الانتصار على اليونان وأعقب ذلك إلغاؤه الخلافة نهائيا، ونفى الخليفة من بلاد الأتراك وتحويل دولته التركية إلى دولة علمانية، فحزن لذلك كثير من المسلمين وعلى رأسهم "رشيد رضا" الذي وصف "كمال أتاتورك" والمروق من الدين الإسلامي، وأخذ يدعو بشدة إلى اعادة الخلافة الإسلامية. وكان يقول لصديقة "شكيب أرسلان": ((إنني ما زلت أرجح الترك على الإفرنج كافة وإن ظلمونا واحتقرونا ... بل أرجح ملاحدتهم الذين يناهضون لغتنا وديننا، ويحتقرون سلفنا الصالح الذي نفاخر به جميع الأمم في صالحيها . أرجح أن يعود الترك سائدين حاكمين لبلادنا على بقاء الإفرنج فيها بأي اسم من الأسماء، أو صفة من الصفات ولكن لا أجد في قومي من يرافقوني على هذا، ويقبلون مني أنه أهون الشرين)). وأخذ يدعو إلى إعادة الخلافة

الإسلامية، وذلك باختيار أهل الحل والعقد في الأمة بسعي الحزب الوسط وهو حزب الإصلاح الإسلامي المعتدل الذي جعله "رشيد رضا" وسط بين الجامدين والمتفرنجين. وقد كتب كل هذا الموضوع مقالات كثيرة في مجلة المنار وجعلها كلها في كتاب أسماه (الخلافة أو الإمامة العظمى) دون فيه آراءه في موضوع الخلافة الإسلامية وقد لقي الكتاب رواجا كثيرا في الشرق والغرب. ومن جهة أخرى فقد عمل "رشيد رضا" على إعادة الخلافة الإسلامية فدعا إلى عقد مؤتمر للخلافة في مصر عام *1924*م فكتب إلى جاوة والجزائر والهند وحضر موت وغيرها من البلدان الإسلامية . وتم انعقاد المؤتمر في السنة المذكورة، ولكن نتيجته لم تكن مشجعة.

وعندما أخذت لوامع الدولة السعودية تلوح كما يقول "ابن باديس" تلوح في الأفق فاجأت العالم بإزالة العرش الهاشمي المتداعي، وانتصابه مكانه بمكة المكرمة، وجد فيها "رشيد رضا" ضالته من دولة إسلامية تنفذ الشرع الإسلامي وتقف عند حدوده وتحي سنته وتقاوم كل ما ألصق به من بدع وضلالات وتنتمي إلى أحد المذاهب الأربعة الكبرى فشمر عن ساق الجد لمؤازرتها وتأييدها وارشادها ووجد من ملكها "عبد العزيز آل سعود" الرجل المسلم الذي يعمل للدين وينتصح لكل ناصح فيه فسار معه حتى وفاته.

خلاصة القول؛ فإن المسار الإصلاحي للشيخ "رشيد رضا" الذي تضمن أعماله وأفكاره وآراءه من أجل ارجاع أمجاد الأمة الإسلامية التي تكالب حولها الاستعمار الأوروبي آنذاك. عبر عن مدرسته الشيخ "محمد الغزالي" بوصفها أنها أذكى مدرسة في العصر الحديث، وقال عنها: ((أعني مدرسة ((المنار)) التي صالحت بين السلف والخلف، والنقل والعقل، والاجتهاد والتقليد، ورسمت أهدافًا واضحة النهوض بالعقل الإسلامي، والطبّ لأمة عليلة !!)).

المصادر والمراجع:

– أحمد محمد جاد عبد الرزاق، **فلسفة المشروع الحضاري بين الإحياء الإسلامي والتَّحديثِ الغربي**، المعهد العالي للفكر الإسلامي، هيرندن، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، *1995*، ج*1*.

– **آثار ابن باديس**، إ. ت: عمار طالبي، ط *3*، الشركة الجزائرية لصاحبها الحاج عبد القادر بوراوو، الجزائر، *1997*، م*2* .

. أنور الجندي، **اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار (منذ ظهورها إلى أوائل الحرب العالمية الأولى)**، دار العلوم للطباعة، القاهرة، *1978*.

– تامر محمد محمود متولي، **منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة**، دار ماجد عسيري، جدة، المملكة العربية السعودية، *2004*.

– خالد بن فوزي بن عبد الحميد آل حمزة، **محمد رشيد رضا طود وإصلاح دعوة وداعية *1282* . *1354*هـ**، ط *2*، دار علماء السلف للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، *1415*هـ.

– شكيب أرسلان، **السيد رشيد رضا وإخاء أربعين سنة**، مطبعة ابن زيدون دمشق، *1937*.

– صلاح الدين المنجد، يويسف ق. خوري، فتاوي **الإمام محمد رشيد رضا**، دار الكتاب الجديد، بيروت، *2005*، ج *1*.

– عبد المتعال الصّعيدي، **المجدِّدون في الإسلام من القرن الأول إلى لقرن الرابع عشر (*100 . 1370*هـ)**، مكتبة الآداب، القاهرة.

. علي المحافظة، **الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة 1897 . 1914**، الأهلية للنشر والتوزيع بيروت، 1987.

– محمد الغزالي، **من تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل**، ط *5*، دار الشروق، القاهرة، *2003*.

– محمد بن رمضان رمضاني، **آراء محمد رشيد رضا في قضايا السنة من خلال مجلة المنار**، مجلة البيان، مركز البحث، الرياض، *1434*هـ، ع: *159*.

– محمد بن عبد الله السلمان، **رشيد رضا ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب**، مكتبة المعلا، الكويت *1988*.

– مشاري سعيد المطرفي، **آراء محمد رشيد رضا العقائدية**، مكتبة الإمام الذهبي الكويت للنشر والتوزيع، *2014*.